D. الشرق الأيوبي وسورية الفرنجية (١١٧١ - ١٢٥٠)

I. صلاح الدين موحد مصر وسورية وهادم القوة الفرنجية (١١٧١ ـ ١١٩٣)

١ ـ صلاح الدين والتوحيد السياسي لمصر وسورية

صلاح الدين (١١٧١ ـ ١١٩٣) ـ ينتمي إلى عائلة كردية علا شأنها بدخولها في خدمة أتابكي حلب التركيين: زنكي وخلفه نور الدين. أبوه أيوب وعمه شيركوه وقد تميزا لدى الإستيلاء على دمشق العام ١١٥٤ وحصلا من نور الدين: أحدهما، أيوب إدارة دمشق والآخر شيركوه مدينة حمص كإقطاعية. وعندما كلف نور الدين أتابك حلب شيركوه بمهمة في القاهرة إصطحب هذا الأخير، كما نعلم، صلاح الدين إبن أخيه أيوب الذي أصبح، إثر الأحداث التي وقعت ورأيناها آنفاً العام ١١٧٤، سيد مصر المطلق.

أ ـ صلاح الدين يحتل سورية المسلمة حتى حماه (١١٧٤ ـ ١١٧٥).

إن صلاح الدين، وبعدما أصبح ملكاً وسيداً مطلقاً على مصر، فقد كان مدفوعاً بديهياً كسائر أسلافه نحو المناطق السورية الضرورية لحماية مصر المستقلة. لذا ما أن توفي نور الدين حتى هرع صلاح الدين إلى سورية حيث أعلن نفسه نصيراً للإسلام ضد المسيحية الفرنجية. ودخل دمشق العام ١١٧٤ ثم إستولى في تلك السنة نفسها على حمص وحماه. أما حلب التي كان ملك صالح إبن نور الدين الأصغر وخلفه قد إنسحب إليها فقاومته مقاومة يائسة. ولكن قيام كونت طرابلس الفرنجي بهجوم مضلل، بناء على طلب المحاصَرين، أجبر صلاح الدين على رفع حصاره (١١٧٤).

وفي العام ١١٧٥ ضم صلاح الدين بعلبك وألحق هزيمة دامية بجيش ملك صالح في جوار حماه. ثم خلع صلاح الدين القناع بعد ذلك النصر

وإتخذ لقب سلطان ومنع الدعاء في خطبة يوم الجمعة لإسم ملك صالح. وكان إتفاق سلام قد وقع مع هذا الأخير إعترف للمنتصر بكل الأراضي التي إحتلها وأصدر خليفة بغداد العباسي فرماناً يثبته على حكم مصر (١١٧٥).

ب ـ حلب والموصل والفرنجة في عداء مع صلاح الدين

إن ملك صالح إبن نور الدين وخلفه، الذي لم يبق له من إرث والده الواسع سوى مجرد إمارة حلب الصغيرة، كان عاجزاً وحده عن مجابهة خطة صلاح الدين الطموحة. ولكن أتابك الموصل، وهو إبن عم ملك صالح شجع بلاط هذا الأخير على مواصلة القتال. ومن جهة أخرى فإن بغدوين الرابع (١١٧٤ ـ ١١٨٥) ملك القدس وهو إبن أموري وخلفه فضلاً عن إبن عمه ومستشاره ريمون كونت طرابلس الذي كان الوصي الحقيقي على المملكة بذلا جهدهما للدفاع عن إبن نور الدين وإمارة حلب ضد صلاح الدين.

ج ـ سياسة صلاح الدين السورية

تحاشى صلاح الدين شن هجوم واسع النطاق ضد الفرنجة قبل إنتهائه من إحتلال سورية المسلمة. فسعى أولاً إلى تطويق الدول الفرنجية على الساحل السوري تماما وذلك بإزالة الإمارات المستقلة في شمال سورية وإنشاء أمبراطورية سورية ـ مصرية موحدة تحت سيادته العليا. لكنه رأى نفسه مجبراً على توجيه حملة ضد إمارة مونتريال تلك البؤرة الفرنجية في شرق الأردن والتي تحميها قلعة الكرك التي كانت تعيق المواصلات وحركة القوافل المسلمة بين مصر وسورية. فوجه حملتين للسيطرة على مدينة شوبك المحصنة العام ١١٧١ و١١٧٣ ولكنهما باءتا بالفشل.

وفي العام ١١٧٥ صد هجوم للفرنجة على منطقة حمص تم على أثره توقيع إتفاقية هدنة. وفي العام ١١٧٦ فإن صلاح الدين سحق أخصامه الأتراك ـ الحلبيين شمال حماه وإستولى على سلسلة من المواقع الحصينة في منطقة حلب وضرب حصاراً على تلك العاصمة التي إستنجدت بالفرنجة. وتم توقيع إتفاقية سلام جديدة إستمرت بموجبها خاضعة لأميرها (١١٧٦).

د ـ صلاح الدين وفرقة الحشاشين (١١٧٦)

وخلال تلك الحملة الأخيرة من العام ١١٧٦ فإن صلاح الدين، الذي أزال الخلافة الفاطمية وحارب الشيعية في أمبراطوريته، تعرض لمحاولة إغتيال

قام بها جماعة من فرقة الحشاشين التي كان قد أعاد تنظيمها منذ فترة وجيزة رشيد الدين سنان المقيم في قلعة مصياف في المنطقة الجبلية الواقعة بين اللاذقية وطرابلس. إن صلاح الدين، الذي لم ينجُ من الموت إلا بفعل المصادفة، قرر تلقين هؤلاء الحشاشين درساً لن ينسوه فزحف إلى قلعتهم مصياف وحاصرها. ولما رأى أنه لا يمكن الإستيلاء عليها عقد إتفاقاً مع قائد فرقة الحشاشين ورفع الحصار عن الموقع (١١٧٦). ولما عاد إلى القاهرة عكف فوراً على بناء القلعة التي سوف تضم بين أسوارها القاهرة والفسطاط معاً.

هـ ـ صلاح الدين في فلسطين وشرق الأردن الفرنجيتين (١١٧٧ ـ ١١٨٢)

وفي العام ١١٧٧ مشى صلاح الدين ضد عسقلان. ففاجأه مع معظم قواته قرب الرملة بين عسقلان واليهودية الملك بغدوين الذي أحرز نصراً كبيراً على جيش صلاح الدين (١١٧٧). إن صلاح الدين، الذي هالته هذه الهزيمة، عاد إلى دمشق وأمر بترميم تحصيناتها. وفي العام ١١٧٩ ألحق بالفرنجة هزيمة كبيرة قرب مرجعيون. وفي العام ١١٨٠ تم عقد إتفاقية هدنة قابلة للتجديد بين الخصمين وعاد صلاح الدين إلى القاهرة.

من جهة أخرى وفي السنة نفسها انتهك سيد مونتريال الفرنجي (شرق الأردن) إتفاق هدنة العام ١١٨٠ وسلب قافلة كانت متجهة من سورية إلى المدينة (١١٨١). بل إنه وضع خطة لمهاجمة مكة والمدينة ونهبهما ومشى بإتجاه الحجاز ولما وصل قرب مدينة تيماء إضطر للإنكفاء والعودة لنفاد المياه (١١٨١). في العام ١١٨٢ راودته فكرة مهاجمة الأماكن الإسلامية المقدسة من جديد فإختار هذه المرة طريق البحر وأطلق حملته في سفن سلكت طريق البحر الأحمر وقامت بعمليات تخريب كبيرة على الساحل القريب من المدينة حيث نشب قتال بينهم وبين عرب تلك المنطقة (١١٨٢). ولم تلقَ العمارة البحرية المصرية التي أطلقت ضد هؤلاء المغامرين المدنسين، أي صعوبة تذكر في طردهم.

و ـ صلاح الدين يضم حلب والموصل (١١٨٣ ـ ١١٨٥)

وإثر موت ملك صالح (١١٨١) تولى إمارة حلب أحد أبناء عمومته وهو قريب لأتابك الموصل. وأصبحت حلب والموصل بهذا تحت حكم أسرة معادية لسلطان مصر.

إن صلاح الدين، وقد أجّل إلى وقت لاحق تصفية حسابه مع سيد شرق الأردن الفرنجي لمحاولته إنتهاك قدسية المدن الإسلامية المقدسة في الحجاز، كان قلقاً من الإتحاد الذي تم أخيراً بين خصميه أتابك حلب وأتابك الموصل، فغادر شرق الأردن حيث كان قد ذهب متجهاً نحو شمال سورية (١١٨٢) وبعدما إستولى على قدس والرقة ونصيبين وسنجار وحران وديار بكر وعينتاب فإنه حاصر حلب التي إستسلمت إثر عشرين يوماً (١١٨٣). وفي العام ١١٨٥ إستسلمت الموصل بدورها. وبهذا تمت وحدة مصر مع مجموع سورية المسلمة (١١٨٥). «إن تلك الأحداث كانت أسوأ ما يمكن أن يحصل للفرنجة. فبمجرد ضم سورية المسلمة ومصر تحت سلطة الرجل المتفوق صلاح الدين. . . سيجعل الفرنجة ليس محاصرين وحسب بل وفي وضع أدنى دائم. فتفوقهم القديم، كما رأينا، كان ناجماً جزئياً من إنقسام المسلمين وإعتباراً من اليوم الذي أصبح فيه العالم الإسلامي موحداً سياسياً من شلالات النيل وحتى الفرات يمكن القول إن أيام الشرق اللاتيني باتت معدودة». [1]

٢ ـ إنهيار سورية الفرنجية

أ ـ سيد شرق الأردن الفرنجي يسبب الكارثة (١١٨٧)

إن الظروف الصعبة التي كان يجتازها الفرنجة في ذلك العصر كانت تفرض وجود شخصية سياسية قوية على رأس مملكة القدس. ومع الأسف فإن بغدوين الرابع، الذي كان يتأكله مرض البرص، مات العام ١١٨٥ تاركاً العرش من بعده إلى طفل عمره خمس سنوات مات هو بدوره في تلك السنة بالذات. فتولت الملكة سيبيل العرش وأشركت معها في الحكم زوجها غي دو لوزينيان وكان غير كفؤ (١١٨٦).

وفي العام ١١٨٦ فإن صلاح الدين، الذي أنجز تحصين الحدود الشمالية في أمبراطوريته شعر أخيراً بأنه مستعد لبدء حملة واسعة النطاق ضد الفرنجة. وإن أبسط دواعي الحكمة كانت تتطلب من زعماء الفرنجة في ذلك الوقت العصيب سياسة ترقب وموقف دفاعي. مع الأسف فإن رينو دو شاتيون سيد شرق الأردن، الذي لا يقبل الإصلاح، ظل يحارب على عادته لحسابه الخاص مستأنفاً أساليبه السابقة «كفارس قاطع طريق». وكرر العملية التي قام بها العام ١١٨١ بسلبه قافلة وفيرة الأموال والثروة كانت متجهة من القاهرة إلى

[1] Grousset, *Les Croisades*, p. 51.

دمشق، وأسر من كانوا فيها (١١٨٧). فوجه صلاح الدين إنذاراً إلى رينو يدعوه فيه إلى الإفراج عن الأسرى وإعادة الغنيمة كما ناشده ملك القدس غي دو لوزينيان على ذلك إلا أنه برفضه تسبب بنشوب حرب رهيبة كان فيها الفرنجة، نظراً إلى قلة عددهم، عاجزين عن مواصلتها أو الإنتصار فيها.

ب ـ هزيمة الفرنجة الساحقة في حطين (١١٨٧)

وفي ٢ تموز ١١٨٧ أعلن صلاح الدين الجهاد المقدس ضد الصليبيين وإستولى على مدينة طبريا وفي ٤ تموز واجه الفرنجة الذين لاقاهم في حطين غرب طبريا بأكبر معركة جرت في تاريخ الحملات الصليبية حيث حاصر جيش الفرنجة وأسر من أسر من فرسانه وقتل الباقين (١١٨٧). وكان الملك غي نفسه بين الأسرى مع أبرز شخصيات المملكة وقد سيقوا الى دمشق. وأما المسؤول عن العدوان على المدن الاسلامية المقدسة ريمون دو شاتيون فلم يجد لنفسه ميتة أفضل فقد قتله صلاح الدين بنفسه. غير أن صلاح الدين المتصر تصرف كعادته بشهامة حيال الملك غي وكان رحيماً معه (١١٨٧). «إن كارثة حطين أدت الى سقوط سورية الفرنجية على الفور. فالإستيطان الفرنجي في سورية، وكما رأينا، لم يكن مكثفاً. والحال أنه في معركة حطين كل سلاح الفرسان النبلاء فضلاً عن عامة المقاتلين أسروا او قتلوا. وهكذا فإن الجالية الفرنجية، وقد فقدت عناصرها، خلت تماماً من المستوطنين. ولم يكن أمام صلاح الدين إلا أن يحصد وفي حملة واسعة كل المدن الفرنجية»[2].

ج ـ إحتلال سورية الفرنجية وسقوط مملكة القدس (١١٨٨)

إن صلاح الدين استغل على الفور نصره فانطلق تواً الى الساحل للاستيلاء على الموانىء التي تشكل رؤوس جسور إنزال لأية حملات صليبية لاحقة. وفي بضعة اشهر سيطر على موانىء مدن عكا والناصرة وقيصرية وحيفا ونابلس ويافا وصلخد وصيدا وبيروت وجبيل والرملة وحبرون وبيت لحم وعسقلان التي استسلمت له جميعاً (١١٨٧).

وأما مدينة القدس التي لم يكن جائزاً لها، «حتى لا تفقد عزتها تجاه المسيحية»، الإستسلام بلا قتال استسلمت فقط عندما نجح المهاجمون في إحداث فجوة في أسوارها. وسمح صلاح الدين لسكان المدينة المقدسة بمغادرتها

2 Grousset, *Les Croisades*, p. 53.

بحرية كما سمح للسجناء بأن يشتروا حريتهم بالمال. إن شرف الفارس لديه ناهيك بشعوره الانساني في هذه المناسبة كانا على مستوى انتصاره. وقد رفض الطلب الذي وجهه بعض المتعصبين بمنع الحج المسيحي الى القدس وهدم القبر المقدس وإزالة مبنى الصليب. وقد رد عليهم صلاح الدين بقوله: «فلنقتدِ بالفاتحين المسلمين الأولين الذين احترموا تلك الكنائس» (غروسيه).

وفي السنة التالية (١١٨٨) إحتل صلاح الدين طرطوس وجبلة واللاذقية وصهيون على ساحل سورية الشمالية والكرك والشوبك وصفد وكوكب في شرق الأردن. وأما مملكة القدس المدمرة فقد إمحت من الخارطة.

وهكذا فإن جميع ممتلكات الفرنجة، وخلال ١٨ شهراً، عادت الى الإسلام باستثناء صور وطرابلس وحصن الفرسان (الملقب بحصن الأكراد في وادي النصارى شمال سورية) وقصر المرقب ومدينة انطاكيا. فبعد أقل من قرن كان الاستعمار الفرنجي في الشرق قد صفي عملياً.

«لقد دخل صلاح الدين إلى القدس دخولاً تاريخياً. فهو بوعيه دوره التاريخي أعاد، في احتفال مهيب الى الإسلام، أماكنه المقدسة في الحرم الشريف مثل «معبد الإله» الذي عاد يسمى مسجد عمر وهيكل سليمان الذي كان يسيطر عليه فرسان الهيكل فعاد يسمى المسجد الأقصى. وخلال مشهد مؤثر يصفه لنا المؤرخ إبن الأثير فإن الصليب المذهب الكبير الذي نصبه الصليبيون على قبة مسجد عمر أنزل وحطم على مرأى من جيش صلاح الدين كله وأمام أعين السكان الفرنجة الذين كانوا يغادرون المدينة في طريقهم الى المنفى»[3].

٣ ـ دولة عكا الفرنجية الصغيرة تسمى «مملكة القدس»

أ ـ الحملة الصليبية الثالثة (١١٩٠ ـ ١١٩٢)

وفي ذلك العصر لم يكن الوضع في أوروبا يسمح بتوجيه حملة جديدة الى فلسطين. فالبابا والأمبراطور الجرماني فضلاً عن ملك فرنسا وملك إنكلترا كانوا يشنون على بعضهم بعضاً حرباً ضروساً. وكانت سلطة الكنيسة تبدو متزعزعة جداً. لكن اللامبالاة الدينية لم تكن قد ولدت بعد في اوروبا وقد حركت خسارة القدس القلوب وأحيت الإيمان الذي كان راكداً فقط. وقرر

3 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 251, 252.

أهم ثلاثة ملوك في الغرب وهم الأمبراطور الجرماني فريديريك بربـاروسا وملك فـرنسـا فيليب أوغست وملك انكلترا هنري بـلانتاجيني حمـل السلاح والتـوجـه لإنقاذ الأرض المقدسة فكانت الحملة الصليبية الثالثة.

وقد سار بـرباروسـا، الذي كـان أول الجاهـزين، على رأس جيش قـوي وحسن التنـظيم وإجتاز اوروبـا الشرقيـة وآسيا الصغـرى واقتحم مـدينـة قـونيـا (١١٩٠) عاصمة الأتراك السلاجقة الأناضوليين وعبـر جبال طـوروس نزولاً الى السهل الكيليكي حيث رحب به الأرمن كحليف. ولـلأسف فإن هـذا الجيش، الذي كان بوسع أعداده الكبيرة والـروح التنظيميـة والنظام لـديه ان تغـير طبيعة الأمور، تشتت قبل وصوله الى سورية. فقائده الأمبـراطور فـريديـريك غـرق في ميـاه نهر كيليكي صغير هـو نهر سلف (١١٩٠) وعـاد قسم كبـير من جيشـه الى اوروبا وأما الباقون فأبحروا باتجاه صور للانضمام الى المسيحيين هناك.

ب ـ إحتلال قبرص وإستعادة عكا ويافا (١١٩١ ـ ١١٩٢)

وأمـا ملك فرنسـا فيليب أوغست والقـائـد الانكليـزي ريكاردوس الملقب بقلب الأسد، وكانـا ما يـزالان على خـلاف، فقد غـادرا معاً فيـزلاي في فرنسـا العام ١١٩٠. ونزل الأول مع جنده عـلى شاطىء عكـا العام ١١٩١ وأمـا الثاني فقـذفت عاصفـة مركبـه الى شواطىء قبـرص حيث انتزع تلك الجـزيرة الكبيـرة من البيزنطيـين (١١٩١). وإن الاستيلاء عـلى هذه الجـزيرة أضـاف الى سوريـة الساحلية الفـرنجية، التي اصبحت مقتصـرة على شـريط ساحـلي ضيق، «ملحقاً جزيرياً» معداً في حـال الفشل النهـائي ليكون ملجـأ للصليبيين. هـذا الاحتلال الـذي جـاء بـالمصـادفـة سيثبت أنـه ينـطوي عـلى أهميـة كبـرى بـالنسبـة الى المستقبـل»[4]. وإلتقى فيليب أوغست وريكـاردوس أمـام عكـا واستـوليـا عليهـا (١١٩٠). ولكن الملك فيليب المريض، والذي تفـاقم خلافـه مع ريكـاردوس، عـاد الى فرنسـا لكنـه تـرك فيلقـاً من جيشـه بتصـرف الحـرب الصليبيـة. وأمـا ريكـاردوس، وقد ظـل بمفرده عـلى رأس الصليبيين وإثـر نصـرين كبيـرين عـلى صلاح الدين في أرسوف (١١٩١) ويافا (١١٩٢)، فإنه زحف نحو القدس.

ج ـ إتفاق سلام أو سلام ـ تسوية (١١٩٢)

لكن الأخبـار التي تناهت الى ريكـاردوس من انكلترا ومفـادها بـأن أخـاه جان يتآمر ضده جعلتـه يعقد صفقـة سلام أو تسـوية سـلام مع صـلاح الدين.

4 Grousset, *Les Croisades*, p. 55.

وبموجب هذه التسوية يبقى الساحل الفلسطيني، الذي أعاد احتلاله الفرنجة اي من صور وحتى يافا وبما فيه تينك المدينتين في حوزة ملك القدس الذي كان بالفعل ملك صور وأما الداخل بما فيه القدس فقد ظل في عهدة صلاح الدين الذي ترك للمسيحيين حرية زيارة المدينة المقدسة (١١٩٢). إن هذه التسوية المرضية للطرفين هي ما أدت اليه الحملة الصليبية الثالثة.

«وبعد كل هذه المعارك والبلبلة والمآسي جاء دور التهدئة الآن. وإن سليل أسرة بلانتاجيني الفائر الحماسة، وبعد كل هذه المعارك الخارقة، إستعاض في النهاية بالتقارب الفرنجي ـ الإسلامي بدل الحرب المقدسة. كما أن خصمه الفارس الشجاع السلطان صلاح الدين، الذي جمع بدوره إضافة الى مجد السيف الفضل بأنه شجع (ومنذ زمن أقدم) هذا الانفراج، إضطر كذلك للاكتفاء بنصف نصر»[٥].

وفي ٩ تشرين الأول ١١٩٢ أبحر ريكاردوس قلب الأسد عائداً الى أوروبا. وبعد ذلك ببضعة أشهر (آذار ١١٩٣) فإن السلطان الكبير صلاح الدين، وقد أعيته الجهود والقلق، توفي عن خمسة وخمسين عاماً في مدينة دمشق حيث ما يزال ضريحه قائماً فيها حتى اليوم.

د ـ تقسيم امبراطورية صلاح الدين وإعادة تشكيلها (١١٩٣ ـ ١٢٠٠)

إن صلاح الدين، تخوفاً من النزاعات التي قد تنشب بين ورثته الكثر بعد وفاته، قسم هو بنفسه وقبل موته ممتلكات امبراطوريته الواسعة فيما بينهم. فعند موت صلاح الدين كانت مصر بأكملها تشكل مملكة واحدة يحكمها إبنه الملك العزيز في حين كانت سورية مجزأة الى إمارات عدة يحكم كلاً منها أمير أيوبي. وتلك الإمارات السورية هي إمارة دمشق وإمارة حلب وإمارة الموصل وهي الامارات الأهم التي كان يحكمها على التوالي إبنا صلاح الدين واخوه. وتضاف الى تلك الإمارات الثلاث الكبيرة إمارات اخرى أقل أهمية كإمارة الكرك وبعلبك وحمص وحماه التي يحكمها أمراء من ذرية أيوب والد صلاح الدين.

«ومنذ العام ١١٩٣ تاريخ وفاة صلاح الدين وحتى العام ١٢٥٠ الذي شهد وفاة آخر ملك مصري من سلالة الأيوبيين فإن تاريخ هؤلاء الأيوبيين كان سلسلة متصلة من المؤامرات والصراعات بين أمراء هذه الأسرة وكل

5 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 281-282.

واحد منهم يبز الآخر بمطامعه الأرضية، وقد إتفق كل الأمراء السوريين على رفض سيادة سلطان مصر، الذي كان يحاول فرضها عليهم، وكانوا كلهم أو على وجه التقريب كلهم يطمعون بالسيطرة خصوصاً على دمشق. إن عاصمة سورية، هدف الصراعات التي استمرت قرابة الستين عاماً، سوف تصبح قلب السياسة السورية المصرية المابينهرية. وأما المعارك مع الصليبيين، التي خفت حدتها كثيراً، فكانت تحتل إهتماماً ثانوياً»[6]. وبعد عام من موت صلاح الدين إنفجر الخلاف بين ولديه، اميري مصر ودمشق. ففي العام ١٢٠٠ فإن عمهما، أخ صلاح الدين، الملك العادل، الذي كان يحكم شمال ما بين النهرين، حرض إبني أخيه الواحد ضد الآخر ونجح في الحلول محلهما. وبعدما إعترف ملك حلب الأيوبي بسيادته، أصبح الملك العادل في العام ١٢٠٠ يجمع جزئياً تحت سلطته امبراطورية صلاح الدين كلها.

هـ ـ مملكة عكا الفرنجية المسماة مملكة القدس

كانت دولة فلسطين الفرنجية الصغيرة، التي تقلصت منذ العام ١١٩١ لتشمل فقط الساحل الضئيل الممتد من يافا الى صور والتي يحكمها هنري دو شامباني (١١٩٢ ـ ١١٩٧)، ما تزال تحمل إسم «مملكة القدس». ولكن عوض ان تكون المدينة المقدسة، التي بقيت في أيدي الاسلام، عاصمة لهذه الدولة فإن عاصمتها الفعلية كانت عكا. وتحت هذه الصورة فإن مملكة القدس الثانية، التي ستدوم قرناً كاملاً بالتحديد (١١٩١ ـ ١٢٩١)، سوف تخلف سابقتها التي أسسها غودفروا دو بويون، والتي استمرت أقل منها بقليل (١٠٩٩ ـ ١١٨٧).

وفي حين ان مملكة القدس الأولى أنشأتها الحماسة الدينية المشبوبة في الحملة الصليبية الأولى واستمرت بفضل جهود ملكية ونبالة فرنجيتين محليتين ولأهداف سياسية وعسكرية وأرضية فإن المملكة الثانية المسماة مملكة القدس لم تعش إلا بفعل مساعدة الغرب المستمرة لها والتي أحيتها جزئياً العام ١١٩١.

«إن الاهتمام، الذي كان يبديه الغرب والحالة هذه في الشرق اللاتيني، لم يكن ناجماً عن اعتبارات دينية فقط بل أيضاً عن اهتمامات اقتصادية وعن الأهمية التي اكتسبتها أساكل سورية في تجارة الشرق. ومن هنا تصاعد دور عناصر مدن جنوى وبيزا والبندقية التجارية وهي عناصر من عامة الشعب

6 Wiet, *op. cit.*, p. 337.

غدت قوية بفضل ثرواتها، وسوف تتفوق تقريباً على العنصر الفرنسي النبيل. ويمكننا والحالة هذه القول إن سورية الفرنجية أنشئت العام ١٠٩٨ بقوة الايمان لكنها وفي القرن الثالث عشر ما كانت لتستمر حية لولا تجارة الأفاويه»[٧]. إن أموري دو لوزينيان (١١٩٧ ـ ١٢٠٥)، الذي كان قد حول إمارته القبرصية الى مملكة، خلف هنري دو شامباني «كملك على القدس» اي عكا. ودشن الملك الجديد عهده بالاستيلاء على بيروت (١١٩٧) مما أعاد المواصلات بين عاصمته عكا وكونتية طرابلس. ثم عقد سلماً مع السلطان الأيوبي الملك العادل أخ صلاح الدين وخلفه الرئيسي سمح بموجبه للفرنجة الإحتفاظ بمكتسباتهم الأخيرة أي ببيروت وجبيل كما ترك لهم مدينة صيدا (١٢٠٤).

وإثر موت أموري دو لوزينيان (١٢٠٥) ملك القدس وقبرص، فإن عرش القدس عاد الى الأميرة ماري دو مونفيرات (١٢٠٥ ـ ١٢١٣) التي تزوجت العام ١٢١٠ جان دو بريان وأشركته معها في الحكم في حين أن عرش قبرص ظل لأمير من أسرة لوزينيان. وفي الشمال فإن بوهيموند الرابع أمير انطاكيا، والذي كان قد تبناه ريمون الثالث آخر كونتات طرابلس، ظل يحكم في آن معاً طرابلس منذ العام ١١٨٩ وأنطاكيا منذ العام ١٢٠١، وستعيش هاتان الدولتان الفرنجيتان بعد الآن تحت نظام الوحدة الشخصية.

و ـ الحملة الصليبية الرابعة تحول نحو القسطنطينية (١٢٠٢ ـ ١٢٠٣)

إن مصير القدس، التي كانت ما تزال في أيدي المسلمين، ما إنفك يثير مشاعر النفوس التقية في الغرب. ففي العام ١١٩٩ تولى البابا إينوشنتوس الثالث الدعوة الى حملة صليبية رابعة. وكان هدف تلك الحملة هذه المرة مصر التي سيستخدم احتلالها كورقة مقايضة مقابل رد القدس وفلسطين الى المسيحيين.

ولكن إيصال الجيوش الى مصر كان يتطلب سفناً ولم تكن إلا البندقية في ذلك الوقت قادرة على تأمين الكمية الكافية منها. بيد أن البنادقة الذين كانت تجارتهم منتشرة في جميع انحاء المتوسط الشرقي لم يريدوا انهيار تلك التجارة في حال قيامهم بنقل الصليبيين الى مصر. وبعدما قبل البنادقة بنقل الصليبيين الى الشاطىء المصري لقاء مبالغ مالية كبيرة نجحوا بالاعيبهم في تحويل هدف تلك الحملة الصليبية من مصر الى القسطنطينية. وفي سبيل إلغاء كل العراقيل

7 Grousset, *Les Croisades*, p. 56-57.

التي يضعها أباطرة بيزنطية أمام تجارتهم راحوا يظهرون للصليبيين المنافع التي يجنونها عندما يكون أمبراطور بيزنطية موالياً لهم. فإتجه الأسطول البندقي إذن نحو القسطنطينية وإحتلها. وأنزل الصليبيون الأمبراطور الكسيس الثالث عن العرش وأعادوا سلفه إسحق الثاني الى العرش مع إبنه اسكندر الرابع لمشاركته في الحكم (١٢٠٣).

ز ـ تأسيس امبراطورية القسطنطينية اللاتينية (١٢٠٤)

بيد أن اليونان اعتبروا الأمبراطور اسحق وولده دمى في يد اللاتين والبابا فثاروا عليهما وخلعوهما (١٢٠٤). عندها إستأنف الصليبيون الحرب لحسابهم الخاص فإحتلوا القسطنطينية ونهبوها (١٢٠٤) ودارت فيها مذابح رهيبة وأعمال نهب وسلب على مدى ثلاثة ايام. وإقتسم الصليبيون الأمبراطورية اليونانية فيما بينهم: فأنشأوا امبراطورية لاتينية في القسطنطينية دامت ٥٧ سنة وإلى جانبها امبراطورية يونانية في نيقيا تمثل موقتاً الأمبراطورية البيزنطية المندثرة وملجأ للهللينية وستكون محررة بيزنطية.

«إن هذا التحويل في وجهة الحملة الصليبية هذه سبب ضرراً فادحاً لسورية الفرنجية. فحرمها من الإمدادات الضرورية لها، وبتوزيعه جهود الفرنجة بين عكا والقسطنطينية أوصل مستوطنات الأرض المقدسة الى حالة ضعف تام. ويمكننا القول بإن الأمبراطورية اللاتينية السريعة الزوال عجلت في نهاية سورية الفرنجية...

وفي الواقع فإن أمبراطورية القسطنطينية اللاتينية... كان محكوماً عليها بالفشل منذ اللحظة الأولى. فحفنة البارونات والفرسان، الذين فرضوا انفسهم بين ليلة وضحاها على المجتمع البيزنطي، لم يكونوا يملكون العدد ولا التفوق الثقافي اللازم لفرض أنفسهم... وعلاوة على ذلك فإن تحويل سير الحملة الصليبية الرابعة... كان مأساة اوروبية. فمنتصرو العام ١٢٠٤ حطموا الوحدة البيزنطية من غير ان يعطوا البديل القابل للإستمرار. وإن عملية التجديد اليونانية العام ١٢٦١ لم تستطع هي نفسها إصلاح تلك الأعطال. وكانت عاجزة عن أن تعيد إلى الأمبراطورية البيزنطية جميع الأراضي التي كانت تمتلكها العام ١٢٠٣ بحيث أن المد التركي، وفي «بلاد الروم» هذه المجزأة نهائياً (أو بتعبير معاصر، المبلقنة) بفعل ضربة العام ١٢٠٤، سيحصل من غير ان يلقى عقبات وإن الحرب الصليبية الرابعة تكون قد مهدت الطريق بذلك، على المدى الطويل ولكن بشكل أكيد، أمام الفتح العثماني»[٨].

8 Grousset, *Les Croisades*, p. 58 et 103.

II. تنافس الأمراء الأيوبيين وصراعاتهم
١١٩٤ ـ ١٢٥٠

١ ـ مصر تصد هجوماً فرنجياً

أ ـ الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٧ ـ ١٢٢١)

وبعد الحملة الصليبية الرابعة التي حولت عن هدفها، فإن زمن الحملات الدينية الكبرى قد ولى. وإن المجتمع الغربي غدا أكثر إنشغالاً بمصالحه الزمنية مما كان يصرف تفكيره عن تحرير الأرض المقدسة. وإن الإمدادات القليلة التي ستأتي بعد ذلك التاريخ من الغرب، بإستثناء حملة القديس لويس، سيقوم بها أمراء أكثر شغفاً بالطمع والمغامرات منهم بالاهتمامات الدينية.

إن تحويل الحملة الصليبية الرابعة نحو القسطنطينية أدانه لحظة حصوله البابا إينوشنتوس الثالث. وأما خلفه هونوريوس الثالث فدعا في الغرب الى حملة صليبية جديدة مع إستنهاضه حمية الفرنجة أنفسهم في سورية.

«إن أولئك الفرنجة من مواليد المستعمرات ـ «الأمهار» كما كانوا يسمونهم يومها ـ ، الذين طابت لهم الحياة السهلة في مدنهم الجميلة على الساحل اللبناني، تأقلموا تماماً مع إتفاق التعايش الفرنجي ـ الإسلامي المعقود العام ١١٩٢. فالسلم كان يحمل الثروات بشكل منقطع النظير إلى موانىء طرابلس وصور وعكا التي عادت، كما في العصر الفينيقي مخازن تجارة الشرق كلها. وإن المستوطنين من مدن البندقية وبيزا وجنوى ومرسيليا وكتلان الصاخبة، الذين أقاموا فيها، كانوا أكثر تفكيراً بأسعار الأفاويه منهم بإنقاذ قبر السيد المسيح»[1].

1 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 294.

ب ـ مصر هدف الصليبيين

إن الحملة الغربية الخامسة التي فشلت، نتيجة عداء صليبيي أوروبا وبارونات سورية الفرنجة وبخاصة عناد القاصد الرسولي، كانت تتألف أصلاً من جيشين متميزين يقود أحدهما أندراوس الثاني ملك المجر ويقود الثاني دوق أنطاكيا ليوبولد السادس. وقد نزل هذان الجيشان في عكا العام ١٢١٧ وما لبث أن إنضم إليهما ملك قبرص وأمير أنطاكيا ـ طرابلس. وبعد فشل الحملة أمام حصن جبل طابور، يئس ملك المجر وقفل راجعاً عن طريق البحر (١٢١٨). فضلاً عن ذلك أدرك المسيحيون أن سورية المسلمة المتمحورة حول حلب ودمشق منيعة من ناحية سورية الفرنجية، وأن «مفاتيح (مداخل) القدس كانت في القاهرة» قلب الأمبراطورية الأيوبية.

«فنقطة الضعف في الأمبراطورية الإسلامية لم تكن في اليهودية بل في مصر وتحديداً في سهولها الخصبة في الدلتا. وإن الفرنجة بسيطرتهم على البحر كان بوسعهم الإستيلاء بسهولة على الموانىء المصرية كالإسكندرية أو دمياط وإستخدامها كرهائن لمقايضتها بإعادة القدس إليهم. هذه السياسة التي كانت تتخذ الموانىء كرهائن كثيراً ما مورست خلال القرن التاسع عشر من جانب القوى العظمى في الأمبراطورية العثمانية كما في الشرق الأقصى. ومن اللافت ملاحظة إستخدامها للمرة الأولى خلال الحرب الصليبية»[٢].

ج ـ الأمراء الأيوبيون والدول الأيوبية العام ١٢١٧

رأينا أنه وفي العام ١٢٠٠ نجح الملك العادل أخو صلاح الدين في إقصاء إبني أخيه عن السلطة والحلول محلهما في مصر ودمشق الموحدتين تحت سلطته. وفي العام ١٢٠١ إعترف كل سائر الأمراء الأيوبيين بسيادته. وفي العام ١٢٠٧ نجح في نيل الإعتراف بملكيته من جانب خليفة بغداد.

وفي الوقت نفسه، وأسوة بصلاح الدين، قسم العادل مملكته بين أبنائه الأربعة: البكر وهو الكامل وحصل على مصر والثاني وهو المعظم ونال سورية الجنوبية من العريش وحتى حمص وأما الولدان الآخران فنالا ممتلكات في حلب وبلاد ما بين النهرين الشمالية. وإن هذه القسمة، التي لم يكن عمرها أطول من عمر قسمة صلاح الدين، سمحت للعادل، أقله موقتاً، بالإنصراف للدفاع عن الأمبراطورية. وتوفي العام ١٢١٧ في فلسطين وهو ينظم القتال

2 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 296.

ضد فرنجة الحملة الصليبية الخامسة التي كانت قد حطت لتوها. وأما إبنه الملك الكامل، الذي كان يحكم مصر، فقد خلفه كسلطان في القاهرة (١٢١٧ ـ ١٢٤٠)

د ـ فشل الفرنجة في مصر (١٢١٩ ـ ١٢٢١)

وفي العام ١٢١٨ قام الجيش الصليبي، الذي يقوده ملك القدس جان دو بريان، بإنزال قبالة شاطىء دمياط. فسارع السلطان الكامل إلى تقديم مدينة القدس إلى الفرنجة لقاء جلائهم عن الدلتا. ومال جان دو بريان ومعظم القادة الفرنجة إلى القبول بهذا الإقتراح. لكن الكردينال القاصد الرسولي وهو الإسباني بيلاج، الذي كان يطالب بالقيادة العليا للحملة، رفض عرض السلطان.

وفي العام ١٢١٩ تم إحتلال دمياط بفضل جان دو بريان وقدم السلطان عرضاً جديداً إلى الفرنجة يتلخص بإعادة كل أراضي مملكة القدس السابقة لهم مقابل جلائهم عن دمياط فرفض بيلاج هذه المرة أيضاً هذا العرض وقرر المضي في الحملة حتى إحتلال القاهرة (١٢٢١). فما كان من المصريين إلا أن قطعوا سدود نهر النيل فطافت مياهه وأغرقت السهل قرب المنصورة وحاصرت الغزاة من كل جانب. إن الجيش المسيحي، الذي لم يعد بوسعه التقدم ولا التراجع، طلب الصلح: وأخليت دمياط بلا مقابل وإكتفى الصليبيون بعودتهم سالمين إلى موانىء سورية (١٢٢١). وكان السلطان الكامل على مثل تسامح عمه صلاح الدين وشهامته فمد، حتى، الجيش المهزوم بالمؤن التي كان يفتقر إليها.

٢ ـ التنافس بين الأمراء الأيوبيين

وفي العام ١٢٢١ كانت خارطة الشرق الإسلامي السياسية تضم من جهة، مشرق الأيوبيين إلى الغرب، ومن جهة أخرى مشرق السلاجقة إلى الشرق والشمال الشرقي (العراق، فارس، الأناضول الشرقية).

وكان للأيوبيين سيادة على مصر حيث يحكم الكامل الذي يحمله لقب سلطان يدعي السيادة على سائر أمراء الأسرة. ومن أبرز هؤلاء: أخوا الكامل، المعظم أمير دمشق، والأشرف أمير بلاد ما بين النهرين، وإبن أخيه العزيز إبن صلاح الدين وملك حلب.

وعوض الإفادة من إسترخاء الفرنجة الذي أعقب إتفاق صلح العام ١٢٢١ فإن الأمراء الأيوبيين، على العكس من ذلك، راحوا يدبرون مؤامراتهم المعهودة ضد بعضهم بعضاً: منها صراعاتهم على من له الأفضلية لكي يحكم مكة كما تتناول مطامع على الممتلكات. وكان كل منهم لا يتورع عن الإستعانة بالعدو، وبفضل تلك الخصومات فإن الفرنجة والخوارزميين سوف يجتاحون سورية وفلسطين»[3].

وكان الكامل، ملك مصر، على أفضل وفاق مع الملك الأشرف ملك بلاد ما بين النهرين «نظراً لوجود كل منهما عند أحد طرفي الأراضي الشاسعة التي يتقاسمها أبناء الأسرة الأيوبية. فقد كان بوسعهما الضغط على الأمراء السوريين لحملهم على إلتزام جانب الهدوء... بيد أن الملك الكامل، ولتمكنه من الحكم بسلام، فإنه فرض على أقاربه ما يمكن تسميته بالتوازن السوري»[4]. وعندما خطر له الإخلال بذلك التوازن لصالحه فإن أخاه الأشد تعلقاً به وهو الأشرف، لم يتردد، محافظة على تقاليد أسلافه المابينهريين في الوقوف إلى جانب أخصامه.

وكان ملك مصر يواجه أكبر الصعوبات مع أخيه معظم ملك دمشق، الذي كان يحاول الإستيلاء على إمارتي حمص وحماه. وفي العام ١٢٢٥ فإن مُعظَّم الذي كان قد أثار تمرداً ضد أخيه ملك ما بين النهرين، طلب لمساعدته قائداً إيرانياً مرهوباً هو جلال الدين شاه خوارزم الذي جاءت قواته ترتكب أعمال تخريب في بلاد ما بين النهرين الجنوبية ومنطقة الموصل إمارة أشرف ومقر إقامته.

أ ـ السلطان الكامل يتطلع نحو الغرب (١٢٢٧)

وفي العام ١٢٢٧ نجح معظّم بأن يستميل إلى جانب قضيته أخاه أشرف ملك ما بين النهرين. وهذا الأخير الذي كان على علاقة طيبة بملك حلب، وعد بدعم ملك دمشق ضد أمراء حمص وحماه وحتى ضد سلطان القاهرة. «كان ذلك يعني عزلاً كاملاً لسلطان مصر، وعندما شعر بذلك سلطان مصر طلب التحالف مع الصليبيين واعداً إياهم بالتنازل عن أراض لا سيما أنها تخص أمير دمشق»[5].

3 Wiet, *op. cit.*, p. 350.
4 Wiet, *op. cit.*, p. 350.
5 Wiet, *op. cit.*, p. 352.

«إن الكامل ملك مصر، وقد هاله تحالف أمراء سورية الأيوبيين والخوارزم لما يمثله هذا التحالف من خطر أكيد على مصر فضلاً عن شعوره بالعزلة التامة ناهيك بثقته المفقودة بضباطه، تطلع نحو الغرب باحثاً عن دعم. وبحسب المقريزي وأبي الفداء وسواهما من المؤرخين العرب فإن سلطان مصر، الذي سبق وأقام علاقات مع فريدريك الثاني، أمبراطور جرمانيا وملك صقلية، أرسل إليه العام ١٢٢٧ رسولاً هو الأمير فخر الدين ليتفاوض حول عقد إتفاق. فالسلطان، الذي كان يرى في تعزيز سورية فرنجية أقل خطراً من قيام سورية مسلمة كبرى، عرض على فريدريك ثمناً لتدخله بضع مدن على الساحل الفلسطيني تخص ملك دمشق وحتى مدينة القدس نفسها (١٢٢٧). إن فريدريك، الذي كان منذ العام ١٢٢٥ زوجاً لوريثة عرش القدس، سوف يظهر قريباً في الشرق كقائد للحملة الصليبية السادسة التي كانت قيد التشكيل في اوروبا.

٣ ـ المغول سادة الهضبة الإيرانية

أمبراطورية جنكيزخان

رأينا في حديثنا عن الأتراك البدائيين أو أتراك آسيا الوسطى من هم المغول، جيرانهم في تلك المناطق والمعروفون بالتتر من قبل صيني القرن التاسع والذين حلوا العام ٩٢٠ محل أتراك منغوليا في السيادة على تلك المنطقة. وفي مطلع القرن الثالث عشر تدفقت حشود كبيرة من ذلك العرق بقيادة الفاتح جنكيزخان الشهير «وهو أعظم فاتح عرفه التاريخ»، من آسيا الوسطى نحو مناطق الغرب. وقد قام المغول، وهم بدو خيّالة وذوو عادات بدائية، بالإجهاز على ما تبقى من حضارة إيران وبلاد ما بين النهرين القديمة.

أ ـ جنكيزخان (١١٩٦ ـ ١٢٢٧) مؤسس أمبراطورية المغول

إن تيموجين (أفضل سيف) الذي دعي لاحقاً جنكيزخان ولد حوالي العام ١١٦٧، وهو إبن زعيم عشيرة مغولية تيتم في سن الثانية عشرة وتخلى عنه ذووه. وقد حصل، بفضل إنتصاراته على مناوئيه، على إعتراف أبرز العشائر المغولية بعد العام ١١٩٦ على أنه خان (أمير أو ملك).

ومن العام ١١٩٦ إلى العام ١٢٠٥ وإثر مفاوضات ومعارك ناجحة توصل تيموجين، الذي بدأ يدرك لديه نبوغ القيادة وعبقرية التنظيم، إلى فرض سيطرته على كامل أرجاء المنطقة المغولية وبعث الأمبراطورية الكبرى

القديمة التي كان قد أسسها أتراك منغوليا (٦٨٣ ـ ٨٤٠). وفي العام ١٢٠٦ دعا المغول والأتراك ومختلف الشعوب الموالية لهم أو المتحالفة معهم إلى إجتماع عام وأعلن نفسه خاقاناً (أي خاناً كبيراً أو ملكاً أعلى) وهو لقب مغولي حمله الملوك الذين تعاقبوا على منغوليا سواء من الترك أو المغول. وبعد ذلك بقليل إتخذ تيموجين لنفسه لقب جنكيزخان أي «الخان الأقوى» وهو لقب جديد إستعاض به عن لقب الخاقان الذي أصبح مستهلكاً نوعاً ما.

وإن جنكيزخان، الذي كان سيداً شرعياً ومطلقاً على جميع المغول والأتراك حيثما كانوا وأينما وجدوا والذي كان معظم جنوده وموظفيه من الترك الأكثر تطوراً من المغول، إن جنكيزخان هذا أراد الوصول إلى حيث وصل، خلال القرون السابقة، كل من سبقه من أتراك من أي منطقة أتوا سواء: تركستان أو إيران أو آسيا الصغرى أو الفولغا إلخ... وبعدما إحتل شمال الصين (١٢٠٩ ـ ١٢١٧) باشر بإحتلال آسيا الغربية حيث كانت السلالات التركية أو من أصل تركي (كالسلاجقة والدانيشمنديين إلخ...) تتقاسم السيادة العليا عليها فضلاً عن الأراضي.

ب ـ سياسة الملوك المغول الإرهابية

إن السبب الرئيسي لسرعة فتوحات جنكيزخان ومن خلفه لم يكن في كثرة عدد جيوشه، والتي كانت غالباً أقل من عدد جيوش أعدائه، بل في الذعر الذي كان يثيره المغول. ومن أجل تحطيم مقاومة العدو فإن جنكيزخان إعتمد الإرهاب كأسلوب للحرب والحكم. «فالشفقة، كتب يوماً إلى أحد أبنائه، هي علامة طبع ضعيف. وحدها القسوة تقيد الناس بواجبهم. فالعدو المنهزم فقط لا يتصالح مع هازمه ويكره دوماً سيده الجديد». لذا فإن المدن الكبرى، التي كانت تقاومه، كانت تدمر بعد الإستيلاء عليها وكان سكانها يذبحون أو ينفون ويرسل الباقون منهم على قيد الحياة إلى منغوليا للقيام بأشغال متفرقة. وقد وجد المؤرخ روبروك من بين المستخدمين لإعادة بناء قره قوروم عاصمة منغوليا الجنكيزخانية «صائغاً باريسياً أسره المغول في بلغراد ومهندساً روسياً متزوجاً من سيدة فرنسية من ميتز» (بلوشيه).

«إن سياسة جنكيز الإرهابية ومذابح هيرات وباميان وبغداد وإبادة ملايين الناس ملأت النفوس هلعاً إلى حد أن أحداً لم يعد يفكر بمقاومته. ويروي المؤرخ المعاصر له إبن الأثير أنه كثيراً ما كان يحضر فارس مغولي بمفرده إلى إحدى القرى فيقتل الرجال الواحد تلو الآخر من غير أن يجرؤ أحد ما

على مقاومته. وإن جيش السلاجقة الروم البالغ عدده ٢٢,٠٠٠ رجل... ما إن علم بإقتراب ١٠,٠٠٠ مغولي منه حتى تشتت وتفرق من غير إنتظاره»[6].

ج ـ طابع الدولة المغولية العلماني

ولا بد لنا من الإعتراف بأن جنكيزخان وخلفاءه، وبرغم كونهم بدائيين ومتوحشين، فإنهم أرسوا في آسيا الغربية المفهوم المغولي حول الدولة المبنية على القومية ومبدأ القانون العلماني أو اليازاك وحافظوا عليهما. ومن هنا جاء تسامحهم التام في موضوع الدين، وغياب ذلك الخلط بين القوانين المدنية والدينية في دولتهم، والذي شل كل تقدم في الشرق الاسلامي وفي مسيحية القرون الوسطى»[7].

د ـ المغول سادة تركستان وإيران وهزيمة الخوارزميين (١٢٢٠)

وفي العام ١٢١٧ إجتاحت جيوش جنكيزخان كشغاريا (تركستان الشرقية). وفي العام ١٢٢٠ إجتاحت بلاد ما وراء النهر (تركستان الغربية) وإيران. وإن ملك خوارزم (تركستان) محمد وإبنه جلال الدين، سيدي الهضبة الإيرانية، هزما بعد معارك بطولية وهربا إلى الهند وإحتل المغول المدن الكبرى: بلخ ومرو وخوارزم وباميان ونيسابور وهمذان وتبريز ونهبوها وأحرقوها وذبحوا سكانها أو أسروهم.

هـ ـ إحياء أمبراطورية الخوارزميين وسلالتهم ثم تدميرهما (١٢٢٥ ـ ١٢٣١)

إن بلاد خوارزم الواقعة بين الأوكسوس وبحر الخزر وشمال فارس، والتي تسكنها شعوب نصف بدوية قديمة تلوذ بالقربى إلى الإيرانيين، كانت موضع تنازع دائم عليها بين الإيرانيين الحضر والطورانيين البدو. وفي أيام حكم العرب، الذين إحتلوها من الأتراك في نهاية القرن السابع، فإن مدن مرو ومشهد ونيسابور كانت مراكز حضارة متألقة. وقد وقعت في مطلع القرن الحادي عشر تحت إحتلال الأتراك السلاجقة لكنها إستعادت إستقلالها تدريجاً. وقد نجح أميرها، الذي إتخذ لقب شاه، في نهاية القرن الثاني عشر في وضع حد لسيادة السلاجقة على فارس وبسط سيادته على كل إيران (١١٩٤).

6 Blochet, *La Grande Encyclopédie*, T. 24, «Mongolie», p. 86.
7 Blochet, *op. cit.*, p. 81.

إن شاه خوارزم، وبعدما هزمه جنكيزخان كما أسلفنا العام ١٢٢٠، إلتجأ إلى الهند مع إبنه جلال الدين. وقد أفاد جلال الدين، الذي خلف أباه على العرش، من عودة جنكيزخان إلى منغوليا ليعود إلى مملكته ويعيد سيادته على إيران (١٢٢٥). إلا أن جيشاً مغولياً أرسل من آسيا الوسطى سحق الخوارزميين (١٢٣٠). وهرب جلال الدين هذه المرة نحو الشمال لكنه إغتيل في جزيرة بحر الخزر (١٢٣١) فيما فلول جيوشه الشهيرة التي ضجت الحوليات الشرقية تحت إسم الخوارزم بانتهاكاتها هرعت إلى بلاد ما بين النهرين وسورية وأعملت فيها خراباً وتدميراً.

وفي العام ١٢٣٧ نهبت الجماعات المغولية بلاد ما بين النهرين وكردستان وأذربيجان وأرمينيا وجورجيا. وفي العام ١٢٤٢ إجتاحت بلاد ما بين النهرين من جديد وهزمت سلطان الروم (قونيا) التركي في آسيا الصغرى.

٤ ـ الأمبراطور الجرماني فريدريك الثاني وإعادة تأسيس المملكة الفرنجية في القدس

أ ـ الحملة الصليبية السادسة أو الحملة الجرمانية (١٢٢٨ ـ ١٢٢٩)

إن فشل الحملات الصليبية السابقة أظهر للغرب أن الشرق الأيوبي منيع سواء في سورية أو مصر. لذا فإن أي حملة صليبية مقبلة لن يكتب لها النجاح إلا إذا نجحت البابوية في إثارة إهتمام الأمبراطور الجرماني فريدريك الثاني بها باعتباره سيد ألمانيا وإيطاليا الشمالية والجنوبية وأقوى ملك أوروبي في ذلك الوقت.

لكن فريدريك، الذي كان طموحه أقوى من تقواه الدينية، كان أكثر إنشغالاً بتوطيد سيادته على الغرب من الانجراف وراء مغامرات في الشرق. ومن أجل حثه على الاهتمام بمسائل سورية الفرنجية وجد البابا وسيلة مقنعة هي تزويج فريدريك من الأميرة إيزابيل الوريثة الشرعية لعرش القدس، الذي كان يجلس عليه جان دو بريان بصفة وصي وحسب. ولما أدرك فريدريك أن هذا المشروع يمكن ان يحقق سيطرته على المتوسط الشرقي سارع الى التجاوب وبخاصة أن لقب ملك القدس، وهو لقب رفيع الشأن، له مكانته في القانون المسيحي وهو أمر لا يستهان به. وعلى الفور عقد زواج فريدريك على إيزابيل (١٢٢٥) وأزيح جان دو بريان وإنتقلت السلطة الشرعية

بفعل الواقع الى الأمبراطور الجرماني الذي أرسل من جانبه مندوباً أو ممثلاً ليكون حاكماً (١٢٢٦).

ب ـ مماطلة الأمبراطور فريدريك

فالأمبراطور فريدريك الذي سارع الى تسلم عرشه الشرقي الجديد لم يكن على الاستعجال نفسه في بدء الحملة الصليبية التي كان يؤخر موعد تنفيذها الى ما لا نهاية. وكان يسعى، على العكس من ذلك خصوصاً وأنه لم يكن معادياً للإسلام، الى التخلص من وصاية بابوية روما وعقد علاقات ودية مع الأمراء المسلمين. ففريدريك الثاني، الذي نشأ في صقلية وهي أرض كانت نصف مسلمة في ذلك العهد، كان لديه بلاط شرقي. بل إنه وطّن جاليات إسلامية كبيرة في جنوب إيطاليا بعدما إستقدمها من صقلية، وكانت تزوده بجنود مخلصين كان يختار من بينهم العديد من المقربين اليه. كما كان يهتم بالفلسفة العربية والعلوم العربية ـ الفارسية التي كانت آنذاك في أوجها. وإذا كان فريدريك قرر في النهاية الذهاب الى الشرق فلتلبية نداء الكامل سلطان مصر اكثر مما كان لتلبية دعوة البابا. وكما رأينا فإن سلطان مصر الكامل كان على خلاف مع أخيه معظم امير دمشق عندما طلب مساعدة امبراطور الجرمان واعداً اياه برد مدينة القدس الى الفرنجة ثمناً لهذا العون.

«وهكذا وفي حين كانت البابوية تحث فريدريك الثاني للذهاب الى الشرق ليقود حرباً مقدسة ضد السلطان فإن السلطان كان يدعو الأمبراطور للقدوم الى الشرق كصديق وحليف للدفاع عنه ضد أخيه وحلفائه»[٨].

إن فريدريك، الذي أراد انتهاز كل الفرص المتاحة أمامه، كان ينتظر للمضي الى الشرق إنتهاء مفاوضاته مع سلطان مصر. لكن وعندما قرر في النهاية الإبحار كانت الظروف المؤاتية له قد تبدلت.فمن جهة فإن البابا الذي سئم تردده ومماطلته إنتهى في نهاية المطاف الى رشقه بالحرم الكنسي (١٢٢٧). ومن جهة أخرى فإن معظم ملك دمشق توفي في تلك السنة نفسها (١٢٢٧) تاركاً على العرش ولداً صغيراً هو الأمير ناصر ليخلفه، وهو أمير صغير وعاجز وأبعد من أن يشكل خطراً على مصر. لذا لم يعد في صالح الكامل أن يستقدم فريدريك، لكن هذا الأخير كان قد توغل كثيراً في مشروع ذهابه الى الشرق ولم يعد بمقدوره التراجع عن هذه الخطوة.

8 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 315.

«فتوجه أخيراً الى الشرق في ظل الظروف الأقل ملاءمة له. ولما كان صليبياً محروماً ومرذولاً من صفه المسيحي من جانب الكرسي الرسولي وفي الوقت نفسه عوض ان يصل كحليف الى سلطان مصر كان يصل في نظر هذا السلطان كشخص غير مرغوب فيه نظراً الى مناورته الطويلة بين الإسلام والمسيحية فكان في هذه الحال عرضة لأن يتنكر له الإسلام والمسيحية معاً»[9].

ج ـ تحالف أيوبي ضد فريدريك (١٢٢٨)

وفي تموز ١٢٢٨ أبحر فريدريك أخيراً الى الشرق. وتوقف أولاً في قبرص حيث حصل على إعتراف بسيادته على تلك المملكة الفرنجية ثم قام بإنزال في أيلول من ذلك العام في عكا.

وفي غضون ذلك فإن سلطان مصر، الذي بدأت رحلة فريدريك تربكه، قرر الإمساك بزمام المبادرة، فغادر القاهرة على رأس جيش قوي وإحتل من غير قتال القدس ونابلس (آب ١٢٢٨) اللتين كانتا تشكلان جزءاً من مملكة إبن أخيه ملك دمشق وإستعد للتقدم الى دمشق نفسها. ولكن هذه الخطوة التي كان من شأنها الإخلال بالتوازن السوري أثارت ردة فعل أشرف ملك بلاد ما بين النهرين الذي توجه الى دمشق لشرح موقفه وأفهم الكامل أنه في حال قيام نزاع فإنه سيقف الى جانب إبن أخيه ملك دمشق. وأدى إجتماع عقد بين الكامل وأشرف الى الاتفاق على أن يتولى ناصر إبن أخيهما الحكم في بلاد ما بين النهرين في حين يتسلم أشرف إمارة دمشق بعد إقتطاع بعض أجزائها الجنوبية في حين يمد الكامل حدود مصر حتى بحيرة طبريا شاملاً تقريباً جميع أجزاء فلسطين. ولكن معارضة ناصر لعرض عميه والقاضي بالتنازل عن ممتلكاته أجبرهما على إرجاء تنفيذ هذا الاتفاق.

د ـ مفاوضات وإتفاق بين السلطان والأمبراطور (١٢٢٩)

إن الانتصارات التي حققها السلطان الكامل من غير مساعدة فريدريك جردت هذا الأخير من أي ذريعة بطلب التنازل له عن القدس التي كان قد وعد بها أثناء المفاوضات. لكن فريدريك لم يكن بوسعه أن يعود خالي الوفاض إلى دوله على الأقل بإستعادة المدينة المقدسة لأن ذلك يفقده كل إعتبار في أوروبا. فإستأنف مباحثاته مع سلطان مصر راجياً هذا الأخير مساعدته على

9 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 317.

إنقاذ ماء الوجه بتسليمه حبياً وطبقاً للإتفاقات الجارية بينهما، المدينة «التي ولد فيها الدين المسيحي».

بيد أن موقف السلطان الكامل كان حرجاً حراجة موقف فريدريك فإعتذر بسبب التغييرات التي طرأت فغيرت الوضع مبدياً أمام الأمبراطور الصعاب التي تحول دون تسليمه مدينة القدس التي هي مدينة مقدسة أيضاً بالنسبة الى المسلمين. وتسليمها يعني إثارة الرأي العام الإسلامي عليه في كل مكان. لكن الكامل كان يخشى من أن يثير حفيظة خصمه الأمبراطور الذي يمكن ان ينحاز الى جانب أمير دمشق الصغير بعدما عقدت النية على تجريده من ممتلكاته. ومن جهة أخرى كان خطر قيام إجتياح خوارزمي جديد ما يزال مرتسماً في الأفق.

وفي تشرين الثاني ١٢٢٨ غادر فريدريك عكا متوجهاً الى يافا فأزال تحصيناتها القديمة. وأما الكامل من جهته فمشى الى دمشق وحاصرها (كانون الثاني ١٢٢٩). لكن فريدريك، الذي تلقى أنباء سيئة من إيطاليا، ألح على السلطان الكامل الإيفاء بما وعد. فرأى الكامل، المتورط في حرب مع إبن أخيه ملك دمشق والذي يحاصر المصريون عاصمته، انه من الحكمة التفاهم مع فريدريك. فعقد معه معاهدة في يافا (١١ شباط ١٢٢٩) تقضي بأن يرد السلطان الى الفرنجة المدن المقدسة الثلاث: القدس التي يمنع تحصينها وبيت لحم والناصرة وبعض المناطق الهادفة الى تأمين المواصلات مع الساحل الفرنجي. وبالرغم من أن مملكة القدس لم تعد الى حدودها السابقة، إلا أن ذلك لم يمنع من أن تشكل مكتسبات فريدريك، ولو نالها بلا حرب وبالتراضي، نصراً دبلوماسياً رائعاً. وقد حررت تلك الاتفاقية بالعربية والفرنسية ونصت على هدنة مدتها عشر سنوات (١٢٢٩).

هـ ـ أهمية اتفاقية العام ١٢٢٩ وإنعكاساتها

إن إتفاقية العام ١٢٢٩ كانت تنطوي على أهمية جوهرية في تاريخ العلاقات الفرنجية الاسلامية. فالملكان اللذان صاغاها كانت افكارهما متقدمة على أفكار عصرهما، فهما، مع مراعاة كل منهما للرأي العام في بلده، سعيا الى وضع حد للحرب المقدسة التي كانت منذ أكثر من قرنين تجبه بين المسيحية والإسلام في الشرق. وفي الواقع فإن السلم الذي تأمن بفضل هذه الاتفاقية للعالمين المتعاديين كان الأكثر ثباتاً وديمومة في كل مرحلة الحروب الصليبية.

«إن اتفاقية يافا حملت بوضوح بصمات تلك الاهتمامات او بالأصح اهتمامات السلطان والأمبراطور حيال الرأي العام، كل في بلده. فكانت تلك الاتفاقية قبل كل شيء تسوية تؤكد قلق الكامل من ردود فعل العالم الاسلامي وقلق فريدريك من رد فعل المسيحية. ومن هنا جاء توازن بنود الاتفاقية وتشابكها: فالقدس أعيدت سياسياً الى الفرنجة ولكن اعترف بها كمدينة مقدسة بالنسبة الى الديانتين، وهي بهذه الصفة تخضع لنوع من حكم ثنائي ديني فيه الكثير من الفطنة. فالمسيحيون يستعيدون القبر المقدس كما يحتفظ المسلمون بالحرم الشريف وقبة الصخرة او مسجد عمر والمسجد الأقصى ممتلكة فرسان الهيكل القديمة... وتلافياً لأي إشكال فإن الطائفة الاسلامية في القدس تبقى تحت سلطة قاض مقيم فيها يعمل كوسيط بينها وبين السلطات الفرنجية الجديدة»[10].

وككل الحلول الوسط فإن اتفاقية العام ١٢٢٩ لم تُرضِ المسيحيين ولا أرضت المسلمين. «فقلما رأينا وضعاً على هذا النحو من التناقض: فمن جهة كان بطريرك القدس يحرم زيارة الأماكن المقدسة والبابوية التي حرمت فريدريك الثاني تأخرت سنتين للإعتراف باتفاقية العام ١٢٢٩. ومن جهة أخرى فإن الرأي العام المسلم أجمع على اعتبار خسارة القدس، وإن جاءت مخففة، مأساة كبيرة للمسلمين. ففي هذا الميدان المحفوف بالخطر على الملك الكامل فإن إبن أخيه الملك الناصر داود (أمير دمشق) وقد رفض القبول بالشروط المعقودة، بمعزل عنه، سيبادر الى مقاومة شرسة»[11].

و ـ تجزئة مملكة القدس الجديدة (١٢٣٠)

وبعدما دخل فريدريك الى القدس المستعادة وتوج ملكاً في كنيسة القيامة فإنه عاد الى عكا ليبحر من هناك الى إيطاليا (١٢٢٩). وما أن رحل حتى عمد بارونات الأرض المقدسة، الذين رفضوا التسليم بإتفاق يافا وتمسكوا بالحرم المعلن ضد الأمبراطور فريدريك، الى محاربة الممثلين الأمبراطوريين. فجان إيبلان، سيد بيروت، طرد هؤلاء الممثلين من قبرص (١٢٣٠) فأرسل فريدريك جيشاً ألمانياً أعاد إحتلال بيروت وصور. لكن حاكم بيروت إيبلان استعادهما الأولى العام ١٢٣٢ والثانية العام ١٢٤٣.

10 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 329-330.
11 Wiet, *op. cit.*, p. 356.

وإن البارونات الفرنجة، مع استمرارهم بالاعتراف بملكية فريدريك مبدئياً والذين حولوا مملكة القدس الى جمهورية فدرالية مؤلفة من بارونيات وبلديات تجارية تديرها أسرة إيبلان النافذة، كانوا عملياً مستقلين بعضهم عن بعض. وتلك البارونيات والبلديات هي: ولايات بيروت وصور وأرصوف ويافا، وبلدية عكا حيث كانت الجاليات التجارية الايطالية تحكم نفسها بنفسها كل تحت سلطة قناصل دولته، الى جانب رهبانية المحبة العسكرية المتمركزة في حصن الفرسان وحصن المرقب ورهبانية فرسان الهيكل في طرطوس وصافيتا وصفد، والتوتونيين الألمان في مونفور.

«تلك كانت الخاتمة المؤسفة لتلك الحملة الصليبية، والتي رغم كل شيء، حققت نجاحاً رائعاً إذ وحدها، بين جميع الحملات المماثلة منذ العام ١١٩٠، أعادت مدينة القدس الى المسيحيين»[12].

٥ ـ بلبلة سورية

أ ـ الأمير أشرف ملك دمشق (١٢٢٩)

إن ناصراً ملك دمشق، الذي كان قد رفض الاتفاق الذي عقده عماه ملك مصر وملك بلاد ما بين النهرين على حسابه، إستغل السخط الشعبي الثائر ضد عمه سلطان مصر نتيجة إتفاقية العام ١٢٢٩، فبقي يقاوم في عاصمته حيث حاصره عمّاه ولكنه كان يتمتع بتأييد الشعب الدمشقي. وبعد أربعة أشهر من المقاومة «تخلى عنه ضباطه بعدما عجز عن تأمين رواتبهم. ولما وجد أن موارده المالية قد نفدت توجه الى معسكر عمه الكامل وأعلن استسلامه (مطلع حزيران ١٢٢٩)»[13]. وتم التوصل الى إتفاق جديد مع عميه نال ناصر بموجبه إمارة الكرك وبضع مناطق في فلسطين ونال أشرف دمشق.

ب ـ فلسطين وشمال بلاد ما بين النهرين تضمان الى مصر (١٢٢٩)

ونتيجة ذلك الإتفاق نفسه فإن السلطان الكامل أضاف الى مملكته المصرية، كل فلسطين وشمال بلاد ما بين النهرين التي تخلى عنها أشرف. وإن ذلك التوسع المصري نحو شمال بلاد ما بين النهرين، والمتعارض جداً مع عادات المصريين وتقاليدهم، كان إمتداداً للتقليد الذي درج عليه صلاح الدين.

12 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 338.
13 Wiet, *op. cit.*, p. 357.

«إن السلالة الأيوبية أسست في مصر ثم شعت منها على المناطق السورية المتفرقة بفعل إرادة مؤسسها. لذا فإن الملك الكامل لم يكن يتصرف إلا وفق الحق وهو حق شرعي الى حد أنه كان يمكنه اعتباره واجباً. . . وكان لا بد أيضاً من أخذ المؤامرات المحاكة ضده بعين الاعتبار والتي بدأت ما أن توفي صلاح الدين ولن تتوقف الا مع إنقراض تلك السلالة»[١٤].

ج ـ السلطان الكامل في بلاد ما بين النهرين الشمالية وحربه مع سلطان قونيا السلجوقي (١٢٣٤)

وفي العام ١٢٣٢ إضطر الملك الكامل للذهاب مجدداً الى شمال سورية حيث عاود الخوارزميون، الذين سبق لهم منذ العام ١٢٢٥ أن أجتاحوا الشمال السوري وبلاد ما بين النهرين ونهبوهما مرات متكررة، اعتداءاتهم من جديد. وفي العام ١٢٣١ إحتلوا أرمينيا وهددوا الأراضي الأيوبية في بلاد ما بين النهرين الشمالية. وتقدم الملك الكامل بجيشه حتى ديار بكر وضم ممتلكات جديدة الى امبراطوريته. وقد أثار هذا التوسع المصري عداوة السلطنة التركية السلجوقية في قونيا التي كانت حتى ذلك التاريخ قد حاربت الخوارزميين. وفي العام ١٢٣٤ مشى السلطان الكامل مع كل أمراء أسرته السوريين لاجتياح الأناضول.

لكن الأمراء الأيوبيين في سورية والمناطق الشرقية، الذين تخوفوا من إقدام السلطان الكامل في حال احتلاله آسيا الصغرى على تقسيمها فيما بينهم وتجريدهم من ممتلكاتهم السورية والاحتفاظ بها لنفسه، تخلوا عنه (١٢٣٤). وعلى الفور انحدرت القوات التركية ـ السلجوقية الى الجنوب ووصلت الى الحدود السورية. وفي العام ١٢٣٥ رد السلطان الكامل المجتاحين ووطد مواقعه على الحدود الشمالية.

د ـ مؤامرات وصراعات بين الإخوة (١٢٣٥ ـ ١٢٤٠)

وبدءاً من العام ١٢٣٥ فإن الشرق الأيوبي سيقع ضحية المؤامرات والصراعات الأخوية. إن مؤامرة من قبل الأمراء السوريين كانت كامنة منذ ثلاث سنوات ضد سلطان مصر إنفجرت العام ١٢٣٦ وطلب هؤلاء الأمراء دعم سلطان قونيا السلجوقي. إلا ان رأس تلك المؤامرة المدبر، وهو أشرف

14 Wiet, *op. cit.*, p. 363.

المعين منذ وقت قصير أميراً على دمشق، توفي العام ١٢٣٧ فتسلم السلطان الكامل حكم دمشق لكنه ما عتم ان توفي بعد ذلك ببضعة شهور (١٢٣٨) فيما كان يستعد لاحتلال إمارة حلب.

وإزداد الوضع تعقيداً بعد إرتقاء السلطان الجديد العادل الثاني سدة الحكم وهو إبن السلطان الكامل وخلفه وكان أميراً شاباً ومستهتراً رفض الأمراء الأيوبيون السوريون القبول بسيادته. فأمير حلب، الذي ظل على تمرده منذ العام ١٢٣٦، طلب مساعدة سلطان قونيا السلجوقي الذي أرسل اليه قوات. كما جند على نفقته عصابة من الخوارزميين، الذين لم يكونوا يحلمون إلا بالسلب والنهب. وأما الأمير صالح أيوب أخو السلطان العادل فقد تخلى عن إمارته سنجار لابنه طوران شاه واستولى على إمارة دمشق (١٢٣٨) والتي ضمت حديثاً الى مصر.

وطوال فترة سنتين (١٢٣٨ ـ ١٢٤٠) فإن امراء مصر ودمشق وحلب والكرك وسنجار وحماه وحمص وبعلبك كانوا يتبادلون ضد بعضهم بعضاً كل أنواع المؤامرات والدسائس. إن صالح أيوب، الذي كان يبغي انتزاع مصر من يد أخيه العادل، مشى الى القاهرة على رأس جيش قوي. وما أن إنطلق في هذه الحملة حتى إنقض على عاصمته دمشق أميرا بعلبك وحمص (١٢٣٩) بعدما كانت دمشق محط أطماع سائر الأمراء. لكن ما أن تخلى عنه جيشه قرب نابلس حتى أسره إبن عمه ناصر أمير الكرك (١٢٣٩). ولما كان خليفة بغداد قد تأثر من جراء هذه الانقسامات فقد أرسل موفداً من طرفه حاول عبثاً إعادة الوئام بين الأمراء الأيوبيين. وكانت هذه المصالحة ملحة خصوصاً مع انتهاء فترة الهدنة بعد عشر سنوات والمعقودة مع فريدريك الثاني. وإن الفرنجة، الذين وصلتهم إمدادات من الغرب (١٢٣٩)، كانوا قد أفادوا بقيادة تيبو الرابع كونت شامبانيا وملك نافار (الحملة الصليبية السادسة) من النزاعات التي تشق صفوف المسلمين. حتى انهم اقاموا عدداً من التحصينات في القدس برغم بنود إتفاق الهدنة التي كانت تمنع اقامة مثل هذه التحصينات. ولكن فرقة عسكرية من حملة تيبو غامرت بالانطلاق أبعد من عسقلان غير أنه قتل جميع أفرادها بالقرب من غزة (١٢٣٩).

٦ ـ نهوض القوة المصرية ورد فعلها

أ ـ الصالح أيوب سلطان مصر (١٢٤٠)

إن ناصراً أمير الكرك، الذي أخذ زمام المبادرة بالرد على الفرنجة والذي كان ما يزال يأسر الصالح أيوب أمير دمشق السابق، انتزع القدس من يد الفرنجة بعد ثلاثة أسابيع من حصارها (٥ كانون الثاني ١٢٤٠). وما أن عزز هذا النصر من معنويات ناصر كثيراً حتى راح يطمع بإمارة دمشق التي كان يشغلها صالح اسماعيل المتمتع بمساندة مصر. وفي شهر نيسان من ذلك العام فإن ناصراً أطلق سراح الصالح أيوب واستقدمه الى القدس واعترف به عاهلاً عليها واقتسم معه الأمبراطورية الأيوبية: على أن تكون مصر لصالح أيوب وسورية ومقاطعات ما بين النهرين لناصر. واستعداداً للحرب انسحب الملكان الى الكرك حيث عمدا الى تحصين مقرهما (١٢٤٠).

وسرعان ما رد العادل سلطان مصر بسرعة على هذا التحالف فاستنفر قواته ولكن أفراد حرسه الأتراك، الراغبين في التخلص منه، أفادوا من هذه الفرصة السانحة لخلعه عن عرشه (أيار ١٢٤٠) «وهكذا لعب العنصر التركي، وللمرة الأولى في مصر، دوراً سياسياً مماثلاً للدور الذي أشرنا إليه في القرن التاسع في بلاط بغداد. وإن هؤلاء الأتراك أدركوا من تلك اللحظة مدى قوتهم: ها هم الآن يتخلصون من ملك وغداً سوف يسقطون السلالة بأسرها»[15].

إن الأمير الصالح أيوب (١٢٤٠ ـ ١٢٥٠)، وقد طالب به الضباط الذين خلعوا السلطان العادل، حضر الى مصر وخلف أخاه المخلوع. وقد تميز عهده، على غرار عهد أخيه، بصراعات أخوية ممزوجة بالصراع الفرنجي ـ الإسلامي الناشب منذ قرن ونصف قرن.

إن هذا السلطان الجديد، الذي خشنت من طبعه الأحداث أكثر مما جعلته حازماً وأصبح يخشى حتى الهلع من أن يلقى مصير أخيه فيخلع بدوره، عمد الى القاء القبض على أخيه المخلوع ووضعه في سجن القلعة في القاهرة. ثم ارتد على أولئك الذين خلعوا أخاه مخافة أن يعيدوا الكرة حياله واستبدلهم بمماليك مخلصين له اتخذ مقراً بينهم في قلعة مبنية على جزيرة الروضة على نهر النيل. ونتيجة نقص المال لديه لم يتورع عن فرض ضرائب على كبار الموظفين

15 Wiet, *op. cit.*, p. 369.

والقضاة الذين اعتبرهم مسؤولين عن الأموال العامة التي اختلست في أيام حكم سلفه.

ب ـ تحالف سوري ـ فرنجي ضد سلطان القاهرة (١٢٤٠ ـ ١٢٤٣)

إن الأمير ناصراً، الذي وصل الصالح أيوب بفضله الى العرش، لم يحصل على شيء من هذا الأخير برغم الوعود التي قطعها له خلال اتفاقهما في القدس. ولما عاد ناصر الى الكرك نظم تحالفاً جديداً مؤلفاً من أميري دمشق وحمص وحتى من الفرنجة الذين سمح لهم بالتزود بالأسلحة من دمشق.

إن السلطان الصالح أيوب، الذي طار صوابه من هذا الخطر الجديد، استنجد بالخوارزميين، أولئك المحاربين الآسيويين المتوحشين الذين جاؤوا ينهبون منطقة حلب ويذبحون سكانها أو يأسرونهم منزلين خسائر فادحة (١٢٤٠). وإن الأمراء المتحالفين، الذين كانوا في غضون ذلك قد عادوا الى خلافاتهم وبعد طردهم الخوارزميين، تجمعوا من جديد العام ١٢٤٣ وأخذوا يستعدون للهجوم على مصر.

إن أمير دمشق، كما في الماضي، «التمس من جديد مساعدة الافرنج الذين كانوا أول المستفيدين من ذلك الانقسام الجديد لأنهم حصلوا على عسقلان وطبريا والقدس وعجلوا بإعادة بناء تحصيناتها (١٢٤٣). وللمرة الثانية في أقل من عشرين عاماً كان الصليبيون يعاودون الاستيلاء على القدس لأن الأمراء الأيوبيين لم يكونوا يحبون بعضهم بعضاً»[16]. وبحصولها على تلك المكتسبات فإن مملكة القدس القديمة كانت قد أعيد تكوينها تقريباً بحدودها التاريخية. لكنها عودة موقتة لن يلبث أن يعقبها في وقت قريب انقلاب مفجع.

ج ـ نصر مصري ـ خوارزمي (١٢٤٣)

وفي ربيع العام ١٢٤٤ عاد الخوارزميون الى الهجوم فاجتازوا الفرات في اتجاه الجنوب ونهبوا المناطق التي كانوا يجتاحونها ووصلوا الى القدس فذبحوا سكانها المسيحيين حتى أنهم تقدموا ليصلوا الى غزة حيث التقوا جيش سلطان مصر الذي كان يقوده رقيق سابق يدعى بيبرس. واشتبكوا قرب غزة مع جيش الأمراء السوريين المؤلف من فصائل عسكرية من دمشق والكرك وجيش إفرنجي حيث أصيب هذا الجيش بهزيمة ساحقة (١٢٤٤).

16 Wiet, *op. cit.*, p. 372.

٥٧٩

د ـ قلب التحالفات (١٢٤٥)

وبعد نصر غزة فإن الجيش المصري الخوارزمي استولى على الساحل الفلسطيني واحتل القدس وحبرون وتقدم حتى دمشق التي استسلمت الى سلطان مصر (١٢٤٥) بعد حصار شديد. ولم يسمح للخوارزميين، الذين منحوا الساحل الفلسطيني كإقطاعة لهم، بالدخول الى دمشق. فهاجوا من خداع سلطان مصر لهم وأقدم قائدهم على التحالف مع أمير الكرك ناصر ومع أمير دمشق صالح اسماعيل الذي كان قد فقد عرشه. وبعد هذا التغيير في التحالفات فإن الخوارزميين، الذين كانوا قد حاصروا دمشق لحساب سلطان مصر، عاودوا ذلك الحصار لكن هذه المرة ضد سلطان مصر ولحساب أخصامهم السابقين.

لكن أعمال السلب والتخريب التي ارتكبها الخوارزميون جعلت شعب دمشق يكرههم. لذا دافعت دمشق المحاصرة عن نفسها ببسالة متحملة أقسى انواع الحرمان. كما أن أميري حلب وحمص اللذين اجتيحت مناطقهما من قبل الخوارزميين قلبا تحالفهما معهم ومشيا ضدهم. ثم إن سلطان القاهرة غادرها مع جيشه ليلتحق قرب دمشق بحلفائه السوريين الشماليين الجدد.

هـ ـ الخوارزميون يسحقون قرب حمص (١٢٤٦). المستعمرات الفرنجية مهددة.

وخشية ان يضطر الخوارزميون الى الحرب على جبهتين، ومن دون انتظار وصول القوات المصرية، عمدوا الى رفع الحصار عن دمشق وساروا لمواجهة القوات السورية الهابطة من الشمال. فسحقوا تحت أسوار حمص (١٢٤٦) وهربت فلولهم نحو الشرق وقضي على قوتهم نهائياً.

ومن جهته فالجيش المصري القادم من الجنوب انتزع من الفرنجة طبريا وعسقلان (١٢٤٧) وهدد عكا. وأبعد الى الشمال كانت إمارة أنطاكيا مهددة بقوة من جانب الأتراك والمغول. إن هذا الوضع الخطير بالنسبة الى الفرنجة، المهددين بأن يلقى بهم في البحر، هو ما أدى الى قيام الحملة الصليبية السابقة.

٧ ـ كارثة الفرنجة في مصر
تفكك سورية الفرنجية

أ ـ الحملة الصليبية السابعة أو حملة القديس لويس (١٢٤٨ ـ ١٢٥٢)

وفي الوقت الذي نحن فيه في سياق سردنا، كانت الحرارة الدينية قد فترت جداً في أوروبا وباتت اللامبالاة الدينية شبه تامة. واستمر الأمراء الغربيون في محاربة بعضهم بعضاً فيما انهمك البابا نفسه في الصراع ضد الأمبراطور فريديريك الثاني. وإن هذا الوضع كان يجعل أية حملة صليبية جديدة غير مضمونة النتائج. وللإقدام على مثل تلك المغامرة كان الأمر يتطلب أمراء تملأهم روح القرن الحادي عشر. ولم يستجب للنداء سوى أمير واحد فقط وهو لويس التاسع ملك فرنسا المعروف أيضاً بالقديس لويس.

ولسوء الحظ فإن القديس لويس وحده كان مشبعاً بهذا الشعور الديني. وأما فرسانه الذين اقتدوا به إنما فعلوا ذلك بدافع الحماسة لا أكثر. إن جيشه الضعيف المؤلف من فرنسيين ومرتزقة كان يمكن له أن يكون كافياً لو كان الملك قائداً كبيراً. ولكن لويس التاسع، برغم أنه فارس مجرب وذو فكر بارز، إلا أنه لم يكن يتمتع بمزايا قائد جيش. إن الحملات الصليبية السابقة فشلت بسبب افتقارها الى النظام ووحدة القيادة. وأما حملة ١٢٤٨ فستفشل بسبب افتقارها الى قائد عسكري.

ب ـ احتلال دمياط (١٢٤٩)

إن القديس لويس، الذي أعلن الحملة الصليبية العام ١٢٤٤، لم يتمكن من مغادرة فرنسا إلا العام ١٢٤٨ بسبب مرض خطير.ثم نزل في قبرص وأقام فيها فترة ثمانية أشهر.

وكما فعل في الماضي أموري الأول وجان دو بريان اللذان اتبع أفكارهما فإن لويس التاسع اعتبر «أن حل مشكلة الأرض المقدسة لا يزال يكمن في القاهرة».فقرر إذن مهاجمة قلب القوة الإسلامية وفي الوقت نفسه مركزها الأكثر قابلية للاختراق.فقام بإنزال قرب دمياط واستولى عليها في اليوم التالي (١٢٤٩) إلا أنه توقف فيها مع جيشه طيلة خمسة أشهر بسبب فيضان النيل الذي كان على وشك أن يبدأ (من حزيران حتى تشرين الثاني). وبعدما رفض عرضاً للسلطان الصالح أيوب بمبادلته القدس بدمياط، مشى لويس التاسع في شهر تشرين الثاني الى القاهرة. لكن الجيش توقف أمام مدينة المنصورة

المحصنة. وذلك الموقع المحصن حيث توفي السلطان الصالح أيوب منذ فترة وجيزة كان يدافع عنه قائد تركي باسل هو بيبرس الشهير، قائد الحرس المملوكي التركي «أحد أفضل رجال الحرب في عصره».

ج ـ كارثة الفرنجة قرب المنصورة وإخلاء دمياط (١٢٥٠)

وقد انطلق روبير دارتوا شقيق الملك لويس مع جيشه بلا روية في المنصورة فقتل مع كل طليعة جيشه (شباط ١٢٥٠). وبعد ذلك بشهرين فإن جيش لويس، الذي حاصره المصريون وفتك به مرض التيفوس، اضطر للاستسلام وأسر الملك نفسه بعد إصابته بهذا الوباء (١٢٥٠). وقد قبل السلطان طوران شاه، الذي ولي العرش مكان أبيه السلطان الصالح أيوب بالتفاوض على أن يرد الملك دمياط الى المصريين كفدية شخصية ويدفع غرامة حربية باهظة كفدية عن الجيش. «ومن أجل إقفال هذا الباب المفتوح باستمرار على الغزوات القادمة من البحر دمرت مدينة دمياط ونقل سكانها الى منطقة أخرى»[١٦].

د ـ المماليك الأتراك أسياد مصر (١٢٥٠)

«وبعد ٧٠ يوماً من حكمه فإن طوران شاه وهو آخر سلطان أيوبي قتله الحرس المملوكي التركي (١٢٥٠) وقد حمل الى العرش أم السلطان المغدور شجرة الدر التركية الأصل (١٢٥٠ ـ ١٢٥٧). فما كان منها إلا أن أشركت معها في الحكم بصفة سلطان أميراً مملوكياً هو الأمير التركي أيبك.

هـ ـ القديس لويس في سورية الفرنجية (١٢٥٠ ـ ١٢٥٤)

وفي غضون ذلك نجح القديس لويس بفضل قرض مالي حصل عليه من فرسان الهيكل، بدفع الفدية وغادر دمياط الى عكا التي وصلها في ١٣ أيار ١٢٥٠.

ومكث الملك لويس التاسع في سورية الفرنجية أربع سنوات (١٢٥٠ ـ ١٢٥٤) وهو يتصرف كملك حقيقي للبلاد، محققاً في جميع المجالات تقدماً. فأعاد تنظيم البلاد ورمم تحصينات أهم المدن وأعاد فرض النظام بين الفرنجة. ومن الناحية الدبلوماسية أفاد ببراعة من العداوة الحاصلة بين المماليك أسياد مصر وورثة صلاح الدين الذين استمروا في الحكم في سورية

17 Brockelmann, *op. cit.*, p. 200.

المسلمة. والى جانب هذا لم يتردد في التوقيع على تحالف مع «شيخ الجبل» رئيس فرقة الحشاشين المرهوبة، عدوة الاسلام السني. وأخيراً فإن لويس التاسع أرسل وفداً من قبله الى المغول لبحث إمكان عقد تحالف معهم. وفي العام ١٢٥٤ توفيت أمّ لويس التاسع الوصية على العرش فاضطر هذا الملك للابحار الى فرنسا التي عاد اليها معدماً مريضاً ولكنه كان شهيراً.

و ـ الفوضى والصراعات الداخلية في سورية الفرنجية (١٢٥٤ ـ ١٢٥٨)

وبعد رحيل القديس لويس فإن سورية الفرنجية التي أصبحت «مملكة بلا ملك» سقطت من جديد في الفوضى والصراعات الداخلية. ففي عكا العاصمة الرسمية للبلاد والمنظمة بشكل بلدية مستقلة فإن جاليتي جنوى والبندقية التجاريتين شنتا على بعضهما بعضاً طيلة سنتين (١٢٥٦ ـ ١٢٥٨) حرباً علنية شعواء عرفت باسم «حرب القديس سابا». وهذه الحرب التي عللت بامتلاك كنيسة القديس سابا كان سببها الحقيقي هو احتكار التجارة في الشرق وامتدت الى سورية الفرنجية كلها التي انحاز سادتها الاقطاعيون الى هذا الفريق أو ذاك. وفي العام ١٢٥٨ وعلى أثر سنتين من الصراع انسحب الجنويون الى صور في حين أن البنادقة ظلوا وحدهم في عكا. وهذا الانقسام شطر سورية الفرنجية الى شطرين متميزين ومتنافسين.